(**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)**) .

[آل عمران : ٨٦ – ٨٩] .

(**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**) استفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم ، أي : كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم .

(**وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ**) أي : بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله .

(**وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**) أي : جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﷺ .

- **قال السعدي** : ... لأنهم عرفوا الحق فرفضوه، ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له ، إذ عرف الحق فتركه ، والباطل فآثره ، فولاه الله ما تولى لنفسه .

- **قال الرازي** : اعلم أنه تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد خصال ثلاث :

أحدها : بعد الإيمان .

وثانيها : بعد شهادة كون الرسول حقاً .

وثالثها : بعد مجيء البينات ، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحاً بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة ، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء أقبح لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود ، وهذا يدل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل .

وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) تهديد لكل ظالم ، وأعظم الظلم الشرك بالله تعالى .

الهداية المنفية هنا هداية التوفيق ، أما هداية البيان والإرشاد فهي حاصلة لكل أحد .

- **قال الشوكاني** : وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

- قوله تعالى (والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين) يقال : ظاهر الآية أَنَّ مَن كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالماً ، لا يهديه الله ؛ وقد رأينا كثيراً من المرتدِّين قد أسلموا وهداهم الله ، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم.

والجواب من وجهين :

أحدهما : أن هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ من العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدِي القومَ الكافرينَ الذين سَبَقَ في عِلْمِهِ عدمُ هدايتِهِم وشقاؤهم شقاءً أزليًّا .

كقولِه (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) .

وقولُه (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) . ونحو ذلك من الآياتِ. وعلى أن هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَرَ فلاَ إشكالَ.

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرّين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم . (الشنقيطي) .

(**أُولَئِكَ**) المشار إليهم ، الذين كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق .

(**جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ**) أي : يلعنهم الله ، أي : يطردهم من رحمته .

(**وَالْمَلائِكَةِ**) أي : والملائكة تلعنهم ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(**وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) أي : يطلبون من الله أن يلعنهم .

واختلف العلماء بالمراد في الناس هنا :

فقيل : المؤمنون فقط .

وقيل : المراد أغلب الناس .

لكن هذا ضعيف، لأن أغلب الناس كفار كما قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

ولذلك الصحيح أن الكافر يلعن الكافر ، ويكون لذلك في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا ، فكوْن الكافر يلعن الكافر في الدنيا بأن يدعو الكافر مثلاً على الظالم ، فإذا قال الكافر – مثلاً – لعن الله الظالم ، دخل هو نفسه في اللعنة ، وأما كون الكفار يلعن بعضهم بعضاً في الآخرة فهذا واضح من قوله تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً) وكذلك من قوله تعالى (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) .

- استدل بهذه الآية من قال بجواز لعن الكافر ، ولعن الكافر على أنواع :

أولاً : لعن الكفار جملة فهذا جائز .

كما في هذه الآية .

وقوله تعالى (فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

ثانياً : الكافر المعين ، فهذا فيه خلاف :

فقيل : لا يجوز .

وممن ذهب إلى هذا الغزالي ، وذكره الإمام النووي .

قالوا : ربما يسلم .

وقيل : يجوز .

لحديث عمر بن الخطاب (أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ ، كان اسمه عبد الله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يُضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب ، فأتي به يوماً فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي ﷺ : لا تلعنوه ، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله) رواه البخاري .

قالوا : فدل على من لا يحب الله ورسوله يلعن .

والذي يظهر الجواز خاصة إذا كان ممن يؤذي المسلمين .

- وأما العصاة لمسلمين :

فلعنهم جملة جائز ولا بأس .

قال تعالى (لعنة الله على الظالمين) .

وقال تعالى (لعنة الله على الكاذبين) .

وقال ﷺ (لعن الله السارق ...) وقال ﷺ (لعن الله آكل الربا ...) .

- وأما العاصي المعين : فلا يجوز لعنه اتفاقاً .

للحديث السابق (حيث كان يؤتى به ويجلد في شرب الخمر ،قال ﷺ : لا تلعنوه ، وفي رواية : لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم) .

(**خَالِدِينَ فِيهَا**) **قال في التسهيل** : قوله تعالى (خالدين فِيهَا) الضمير عائد على اللعنة ، وقيل : على النار وإن لم تكن ذكرت؛ لأنّ المعنى يقتضيها .

ورجح الرازي الأول وقال : والأول أولى لوجوه .

الأول : أن الضمير إذا وجد له مذكور متقدم فرده إليه أولى من رده إلى ما لم يذكر .

الثاني : أن حمل هذا الضمير على اللعنة أكثر فائدة من حمله على النار ، لأن اللعنة هو الإبعاد من الثواب بفعل العقاب في الآخرة وإيجاده في الدنيا ، فكان اللعن يدخل فيه النار وزيادة فكان حمل اللفظ عليه أولى .

الثالث : أن قوله (خالدين فِيهَا) إخبار عن الحال ، وفي حمل الضمير على اللعن يكون ذلك حاصلاً في الحال ، وفي حمله على النار لا يكون حاصلاً في الحال ، بل لا بد من التأويل ؛ فكان ذلك أولى .

(**لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**) أي : لا يخفف عنهم طرفة عين . بل هو دائم متواصل .

كما قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) .

وقال تعالى (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُون) .

وقال تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

(**وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**) أي : ولا يُمهلون أو يؤجلون ، بل يكون حاضراً متصلاً بعذاب مثله فكأنه تعالى أعلمنا أن حكم دار العذاب والثواب بخلاف حكم الدنيا فإنهم يمهلون فيها إلى آجال قدرها الله تعالى ، وفي الآخرة لا مهلة ألبتة فإذا استمهلوا لا يمهلون ، وإذا استغاثوا لا يغاثون وإذا استعتبوا لا يعتبون ، وقيل لهم (اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلّمُونِ) .

وقيل : هو من النظر أي : لا ينظر الله إليهم فيرحمهم .

- **قال الماوردي** : (وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ) يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يؤخرون عنه ولا يمهلون.

والثاني : لا ينظر الله عز وجل إليهم فيرحمهم .

(**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**) : أي : أظهروا أنهم كانوا على ضلال .

(**وَأَصْلَحُوا**) أي : وأصلحوا ما كانوا أفسدوه ، وغرّوا به من تبعهم ممن لا علم له .

- **قال ابن عطية** : والإصلاح عام في القول والعمل.

(**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**)يغفر لهم ما قدموه ، ويعفو عنهم ما أسلفوه .

(**رَحِيمٌ**) ومن رحمته أنه يغفر الزلات والخطيئات ، فرحمة الله واسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) .

وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

- **قال ابن كثير** : (إلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه : أنه من تاب إليه تاب عليه. أ هـ

الفوائد :

١- أن من ضل عن بصيرة ، فإنه يبعد أن يُهدى .

٢- أن الهداية والإضلال بيد الله .

٣- أن الإنسان قد يستكبر ويعاند بعد أن تبين له الحق .

٤- أن الكفر بعد الإيمان أغلظ من الكفر الأصلي .

٥- أن الله تعالى لم يترك الخلق هملاً ، بل أقام لهم الحجج والبينات .

٦- إثبات الجزاء .

٧- أن الكفار مخلدون في النار .

٨- أن التوبة تجب ما قبلها .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١)) .

[آل عمران : ٩٠ – ٩١] .

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**) يقول تعالى متوعدًا ومتهدِّدًا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا، أي: استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) .

- **قال الشنقيطي** : هذه الآية الكريمة تدل على أن المرتدين بعد إيمانهم المزدادين كفراً لا يقبل الله توبتهم إذا تابوا؛ لأنه عبّر بـ (لن) الدالة على نفي الفعل في المستقبل .

مع أنه جاءت آيات أخر دالة على أن الله يقبل توبة كل تائب قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها .

كقوله تعالى (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَف) .

وقوله (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) .

والجواب من أربعة أوجه :

ورجح رحمه الله فقال :

الثاني: وهو أقربها عندي أن قوله تعالى (لن تقبل توبتهم) يعني إذا تابوا عند حضور الموت، ويدل لهذا الوجه أمران :

الأول : أنّه تعالى بيّن في مواضع أخرى أنّ الكافر الذي لا تقبل توبته هو الذي يصر على الكفر حتى يحضره الموت في ذلك الوقت ، كقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فجعل التائب عند حضور الموت والميت على كفره سواء .

وقوله تعالى (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) .

وقوله في فرعون (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِين) فالإطلاق الذي في هذه الآية يقيّد بقيد تأخير التوبة إلى حضور الموت لوجوب حمل المطلق على المقيد كما تقرر في الأصول.

الثاني : أنه تعالى أشار إلى ذلك بقوله (ثم ازدادوا كفراً) فإنه يدل على عدم توبتهم في وقت نفعها، ونقل ابن جرير هذا الوجه الثاني – الذي هو التقيد بحضور الموت – عن الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي.

(**وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**) أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغَيّ.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ**) أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قُرْبة .

كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدْعان –وكان يُقْرِي الضيفَ، ويَفُكُّ العاني، ويُطعم الطعام–: هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِن الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يوم الدِّينِ .

قال النووي : معنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة ، لكونه كافراً ، وهو معنى قوله ﷺ : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ، أي لم يكن مصدقاً بالبعث ، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل .

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . فعلق حبوط العمل بموته على الكفر .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

- وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه .

كما قال تعالى (وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ) .

وقال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

(**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) مؤلم موجع .

(**وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)** أي: وما لهم من أحد يُنْقِذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

- فالإيمان شرط لقبول الأعمال :

كما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً).

وقال تعالى (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب).

الفوائد :

١- أن المرتد إذا بقي على ردته ، فإنه لا تقبل توبته عند الموت .

٢- أن من تاب قبل أن يحضر أجله تاب الله عليه .

٣- أن من مات على الكفر فلن يقبل منه شيء .

٤- شدة العذاب على الكافرين .

(لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)) .

[آل عمران : ٩٢] .

(**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**) **قيل** في معنى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ) أي : لن تبلغوا ثواب البر ، **وقيل** : لن تبلغوا درجة ومنزلة أهل البر .

والمراد بالنفقة هنا : قيل الواجبة ، وقيل : جميع الصدقات ، وقيل : جميع النفقات التي يُبتغى بها وجه الله تعالى ، سواء كانت صدقة ، أو لم تكن .

ومعنى الآية : لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذي يوصلكم إلى رضا الله، وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين،

إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله، وما تنفقوا من شيء- ولو قليلا- فإن الله به عليم، وسيجازيكم عليه بأكثر مما أنفقتم وبذلتم.

أي: لن تنالوا وتدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة (حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم ، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته ، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم . (تفسير السعدي) .

- **قال السعدي** : فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفس ، من أكبر الأدلة على سماحة النفس ، واتصافها بمكارم الأخلاق ، ورحمتها ورقتها .
- أمثلة تطبيقية :

أ- عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قال (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ قَالَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) متفق عليه .

ب-وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ (أَصَابَ عُمَرُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالاً قَطُّ هُوَ أَنْفَسُ عِنْدِي مِنْهُ فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ قَالَ «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا» قَالَ فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لاَ يُبَاعُ أَصْلُهَا وَلاَ يُبْتَاعُ وَلاَ يُورَثُ وَلاَ يُوهَبُ. قَالَ فَتَصَدَّقَ عُمَرُ فِي الْفُقَرَاءِ وَفِى الْقُرْبَى وَفِى الرِّقَابِ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ لاَ جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يُطْعِمَ صَدِيقًا غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ. قَالَ فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مُحَمَّدًا فَلَمَّا بَلَغْتُ هَذَا الْمَكَانَ غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ. قَالَ مُحَمَّدٌ غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالاً. قَالَ ابْنُ عَوْنٍ وَأَنْبَأَنِي مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنَّ فِيهِ غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالاً) متفق عليه

ج- وعنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ « الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ». قَالَ قُلْتُ أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ « أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا ...) رواه مسلم .

د- كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرّبه إلى ربه امتثالاً لقوله تعالى (لن تنالوا البر ...) .

هـ- قال القرطبي: وكذلك فعل زيد بن حارثة، عمد مما يحب إلى فرس له يقال له «سبل» وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه، فجاء بها إلى النبي ﷺ .

و- واشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها فقيل له : لم أعتقتها ولم تصب منها ؟ فقال (لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّون)

ز- وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار ، قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأوّل قول الله عز وجل (لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّون) .

ك- وكان الربيع بن ختيم إذا جاءه السائل يقول لمولاته : يا فلانة أعطي السائل سكراً ، فإن الربيع يحب السكر.

ط- وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالاً من سكر ويتصدّق بها ، فقيل له : هلا تصدّقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إليّ فأردت أن أنفق مما أحبّ.

وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تُدركوا ما تأمّلون إلا بالصبر على ما تكرهون

(**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ**) من صغير أو كبير .

(**فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**) لا يخفى عليه شيء ، وسيجازيكم عليه أتم الجزاء .

- **قال السعدي** : ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثابا عليه العبد، سواء كان قليلا أو كثيراً ، محبوباً للنفس أم لا وكان قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه .

الفوائد :

١- فضل الإنفاق مما يحبه الإنسان .

٢- أنه كلما أنفق الإنسان مما هو أحب إليه ، كان أكثر لبره .

٣- عموم علم الله تعالى .

٤- إثبات الجزاء .

(**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)**) .

[آل عمران : ٩٣ – ٩٤] .

(**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ**) أي : كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل .

والطعام : مصدر بمعنى المطعوم ، والمراد به هنا كل ما يطعم ويؤكل.

وحلا : مصدر أيضاً بمعنى حلالاً ، والمراد الإخبار عن أكل الطعام بكونه حلالاً ، لا نفس الطعام ، لأن الحل كالحرمة مما لا يتعلق بالذوات.

(**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ**) أي : إلا ما حرمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ، ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة على معاصيهم .

وإسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام .

(**مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**) أي : كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة .

(**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) أي : قل لهم يا محمد ائتوني بالتوراة واقرأوها عليّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم .

ومعنى الآية : قال بعض العلماء : كل أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبنى إسرائيل قبل نزول التوراة إلا شيئاً واحداً كان محرماً عليهم قبل نزولها وهو ما حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه ، فإنهم حرموه على أنفسهم اقتداء به ، فلما أنزل الله التوراة حرم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم.

هذا هو الحق الذي لا شك فيه ، فإن جادلوك يا محمد في هذه المسألة فقل لهم على سبيل التحدي : أحضروا التوراة فاقرءوها ليتبين الصادق منا من الكاذب ، إن كنتم صادقين في زعمكم أن ما حرمه الله عليكم فيها كان محرماً على نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (كل الطعام كان حلاً ...) إخبار بمغيب عن محمد ﷺ وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماء أهل الكتاب ، وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية : الرد على اليهود في قولهم في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء : إنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة ، فأكذبهم الله بهذه الآية ، وأخبر أن جميع الطعام كان حلاً لهم ، إلا ما حرم

إسرائيل على نفسه خاصة ، ولم يرد به ولده ، فلما استنوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم ، وليس من التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها .

- وقال في التسهيل: الآية إخبار أن الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل (إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ) أبوهم يعقوب (على نَفْسِهِ) وهو لحم الإبل ولبنها، ثم حُرِّمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها، عقوبة لهم على معاصيهم، وفيها رد عليهم في قولهم: إنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، وأن الأشياء التي هي محرمة كانت محرمة على إبراهيم، وفيها دليل على جواز النسخ ووقوعه؛ لأن الله حرم عليهم تلك الأشياء بعد حلها، خلافاً لليهود في قولهم: إنّ النسخ محال على هذه الأشياء، وفيها معجزة للنبي ﷺ؛ لإخباره بذلك من غير تعلم من أحد ، وسبب تحريم إسرائيل لحوم الإبل على نفسه أنه مرض، فنذر إن شفاه الله . أن يحرم أحب الطعام إليه شكراً لله وتقرّباً إليه، ويؤخذ من ذلك أنه يجوز للأنبياء أن يحرموا على أنفسهم باجتهادهم . (التسهيل)
- **قال السعدي** : وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له به .
- **قال ابن كثير** : الآية مشروع في الرد على اليهود، وبيان بأن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما حرم على نفسه ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وبتحريم أشياء زيادة على ذلك – عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم. وهذا هو النسخ بعينه .

(**فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) أي : فمن تعمد الكذب على الله تعالى بأن زعم بأن ما حرمته التوراة على بنى إسرائيل من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم ، كان محرماً عليهم وعلى غيرهم قبل نزولها ، فأولئك الذين قالوا هذا القول الكاذب هم المتناهون في الظلم : المتجاوزون للحدود التي شرعها الله تعالى ، وسيعاقبهم سبحانه على هذا الظلم والافتراء عذاباً أليماً لا مهرب لهم منه ولا نصير.

- افترى : من الافتراء وهو اختلاق الكذب ، وأصله من فرى الأديم إذا قطعه لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود ، والكذب : الإخبار بخلاف الواقع .
- قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي : من بعد قيام الحجة وظهور البينة .

(**قُلْ صَدَقَ اللَّهُ**) أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً ويقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (قُلْ صَدَقَ الله) أي ظهر وثبت صدقه في أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه وقيل : في أن محمداً ﷺ على دين إبراهيم عليه السلام وأن دينه الإسلام ، وقيل : في كل ما أخبر به ويدخل ما ذكر دخولاً أولياً وفيه كما قيل : تعريض بكذبهم الصريح .
- **وقال ابن عاشور** : قوله تعالى (قل صدق الله) وهو تعريض بكذبهم لأنّ صدق أحد الخبرين المتنافيين يستلزم كذب الآخر، فهو مستعمل في معناه الأصلي والكنائي.
- وفي الآية ثناء على الله تعالى وقد قال تعالى (وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) .
- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (صَدَقَ الله) أي الأمر كما وصف ، لا كما تكذبون أنتم . ففيه تعريض بكذبهم .

(**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم ﷺ بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين .

كما قال تعالى (وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

- وملة إبراهيم : هي الحنيفية السمحة ، وهي الإسلام كما قال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

- والحَنِيفِيَّةُ :دِينُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ؛ ولكِن أُضِيفت إلى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ ؛ لأنَّه أَكْمَلُ الخَلْقِ تحقِيقًا للتَّوحيدِ مع نبيِّنا ﷺ ؛ وإِبْرَاهِيمُ: الأبُ، ومُحَمَّدٌﷺ : الابنُ؛ فاستَحَقَّ أن تُنْسَبَ إلى الأَبِ دُون الابْنِ؛ فيقال: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ على جهةِ التَّشْرِيفِ له؛ وإن كانَت هي مِلَّةَ الأنبيَاء جَمِيعاً .

- ملة إبراهيم هي عبادة الله مخلصين له الدين، فهي توحيد الله فلم يدعو معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) . وقال تعالى (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

- قوله تعالى (وما كان من المشركين) في هذا ثناء على إبراهيم ﷺ . وقد أثنى الله عليه في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) .

وقال تعالى (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) .

- وثناء الله على شخص لفائدتين :

الأولى : لنقوم بالثناء عليه .

والثانية : لنقتدي به .

الفوائد :

١-أن لله تعالى أن يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء .

٢- الرد على اليهود الذين زعموا أنه لا نسخ في الشرائع .

٣- أن التوراة منزلة كالقرآن .

٤-إثبات علو الله تعالى .

٥- علم من أعلام نبوته ﷺ .

٦- أنه ينبغي للإنسان أن يتحدى خصمه بما تَبين به الحجة على وجه لا مفر منه .

٧- أنه متى ظهر الحق فحاد الإنسان عنه صار أشد ظلماً .

٨- تحريم الكذب على الله .

٩- أن من العباد من يفتري الكذب على الله .

١٠- وجوب تصديق الله .

١١- الثناء على الله بالصدق .

١٢- وجوب اتباع ملة إبراهيم .

١٣- الثناء على إبراهيم .

١٤- فضل التوحيد ومجانبة الشرك .

١٥- أن المقياس بين الناس بالأعظم تحقيقاً للتوحيد وابتعاداً عن الشرك .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)) .

[آل عمران : ٩٦ – ٩٧] .

(**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**) يُخْبر تعالى أن أول بيت وُضع للناس، أي: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسُكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده .

(**لَلَّذِي بِبَكَّةَ**) يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يَزْعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجِه، ولا يَحجُّون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه.

عن أبي ذر ﷺ قال (قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مَسجِد وُضِع في الأرض أوَّلُ؟ قال: الْمسْجِدُ الْحَرَامُ، قلت: ثم أَيُّ؟ قال: الْمسجِدُ الأَقْصَى، قلت: كم بينهما؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قلتُ: ثم أَيُّ؟ قال: ثُم حَيْثُ أَدْرَكْت الصَلاَةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِد) . متفق عليه

- قوله تعالى (بِبَكَّةَ) بكة اسم من أسماء مكة على المشهور .

قيل : سُمِّيت بذلك لأنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى: يُبَكون بها ويخضعون عندها.

وقيل : لأن الناس يَتَبَاكّون فيها، أي: يزدحمون .

(**مُبَارَكاً**) أي : كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره .

ووجه بركته :

أولاً : أن الطاعات إذا أتى بها في هذا البيت ازداد ثوابها.

قال ﷺ (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) .

وقال ﷺ (من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) .

وقال ﷺ (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة والرحمة .

وثانيها : قال القفال رحمه الله تعالى: ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى (يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءِ) فيكون كقوله (إلى

المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) .

وثالثها : فيه زمزم ، وقد قال ﷺ (ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم) .

ورابعها : ما دعا به إبراهيم لمكة ، أن يبارك الله في ثمارها ومدها وصاعها .

(**وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**) وجه هدايته للعالمين :

أولاً : أنه قبلة للمؤمنين ، يهتدون به إلى جهة صلاتهم .

ثانياً : أن به دلائل وآيات تدل على الخالق سبحانه وتعالى .

ثالثاً : أنه هدى للعالمين إلى الجنة .

(**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**) أي : فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد .

(**مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**) يعني: الذي لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقا بجدار البيت، حتى أخّره عُمَر بن الخطاب ﷺ في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يُشَوّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى).

(**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**) يعني: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمنُ من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية .

كما قال الله تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) .

وقال تعالى (وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً) .

وقال إبراهيم (رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا) .

وحتى إنه من جملة تحريمها حُرْمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحُرْمة قطع أشجارها وقَلْع ثمارها .

(**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**) أي : فرض لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق .

- وهذه آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل : بل هي قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) والأول أظهر . (تفسير ابن كثير)

تعريف الحج لغة : القصد ، يقال : حج كذا بمعنى قصد .

وشرعاً : التعبد لله بأداء المناسك على صفة مخصوصة في وقت مخصوص .

(**مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**) أي : واجب على المستطيع الوصول إليه .

واختلف العلماء في المراد بالسبيل هنا :

فذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالسبيل الزاد والراحلة .

وهذا قول جمهور العلماء .

لحديث ابن عمر . قال : قال ﷺ (السبيل الزاد والراحلة) .

قال الشوكاني : ولا يخفى أن هذه الطرق يقوي بعضها بعضاً فتصلح للاحتجاج بها .

وقال الشنقيطي : حديث الزاد والراحلة لا يقل بمجموع طرقه عن درجة القبول والاحتجاج .

وقد ذكر الترمذي أن أكثر أهل العلم على العمل بها .

وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في تفسير السبيل أنه قال : أن يصح بدن العبد ، ويكون له ثمن زادٍ وراحلة من غير أن يجحف به ، وسنده صحيح .

والمراد بالزاد : ما يتزود به ، وهو في الأصل الطعام الذي يُتخذ للسفر ، والمراد هنا : ما يحتاج إليه في ذهابه ورجوعه من مأكول ومشروب

وكسوة ، **والراحلة** : الناقة التي تصلح لأن يرحل عليها .

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالاستطاعة على قدر الطاقة .

واختار هذا ابن جرير في تفسيره .

فيدخل في ذلك الزاد والراحلة وأمن الطريق ووجود مكانٍ صالحٍ للمبيت بالمشاعر وزوال الموانع من أداء الحج أياً كانت، ونحو ذلك.

وقال الشيخ محمد رحمه الله : الصحيح أن المراد بالسبيل في قوله تعالى : (من استطاع إليه سبيلاً) المراد الطريق الذي يوصلك إلى مكة أي طريق كان ، سواء كان زاداً أو راحلة أو مشياً على الأقدام ، أو ما أشبه ذلك .

(**وَمَنْ كَفَرَ**) استدل به من قال إن تارك الحج عمداً كافر ، وجمهور العلماء على عدم كفره .

وأجابوا عن هذه الآية (ومن كفر) بأجوبة :

الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ (وَمَنْ كَفَرَ) أَيْ : وَمَنْ جَحَدَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ ، فَقَدْ كَفَرَ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ ، وَبِهِ قَالَ : ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ (وَمَنْ كَفَرَ) أَيْ : وَمَنْ لَمْ يَحُجَّ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيظِ الْبَالِغِ فِي الزَّجْرِ عَنْ تَرْكِ الْحَجِّ مَعَ الِاسْتِطَاعَةِ كَقَوْلِهِ لِلْمِقْدَادِ الثَّابِتِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» حِينَ سَأَلَهُ عَنْ قَتْلِ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْكُفَّارِ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ يَدَهُ فِي الْحَرْبِ (لا تَقْتُلْهُ ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَال) .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَحُجَّ مَعَ الِاسْتِطَاعَةِ فَقَدْ كَفَرَ .

(**فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**) غني سبحانه عن جميع الخلق وعن عباداتهم وطاعاتهم .

كما قال تعالى (وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وقال تعالى (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) .

وقال تعالى (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وقال تعالى (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) .

الفوائد :

١-أن أول بيت وضع للعبادة هو الكعبة .

٢- أن تقدم المكان في العبادة له أثر في تفضيله .

٣-أن هذا البيت هدى للعالمين .

٤- أن من أسماء مكة بكة .

٥-أن هذا البيت مبارك .

٦- أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن .

٧-وجوب الحج .

٨- أن وجوبه مقيد بالاستطاعة .

٩- أن الحج واجب مرة واحدة في العمر ، لأن الأمر لا يقتضي التكرار ، وقد دلت السنة أيضاً على أنه لا يجب إلا مرة واحدة في العمر ، كما في حديث أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال (إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أفي كل عام يا

رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت) .

١٠- رحمة الله بعباده بحيث لم يفرض على عباده ما يشق عليهم .

١١- خطر ترك الحج لقوله (ومن كفر ..) .

١٢- غنى الله عن عباداتنا وطاعاتنا .